المقياس العلمي للمفسر

أ.د/ السيد مرسي إبراهيم البيومي

الأستاذ بقسم التفسير

لقد عنى المسلمون منذ فجر الإسلام ، وسطوع ضياء الهداية الإلهية على ربوع العالم بالقرآن الكريم عناية كبرى أحاطت بكل جوانبه ، وشملت كل ما يتصل به ، وإنما كانت عنايتهم على هذا النحو ، لأن القرآن الكريم مصدر تلك الهداية الإلهية ، ومنبع ذلك الضياء والإشراق .

وكان لهذه العناية نتائجها الطيبة المباركة فى حياة الإنسان عامة والمسلمين خاصة ، ولقد أفاد منها العلم ، وأفاد منها العقل ، وأفاد منها الدين ، وأفاد منها القانون والتشريع ، وأفادت منها الفلسفة والأخلاق ، وأفاد منها المال والاقتصاد ، وأفادت منها السياسة والحكم ، وبالجملة فقد أفاد منها كل مظهر من مظاهر النشاط الفكرى والعملى عرفه الناس فى حياتهم الدينية والمادية

ولقد حفظت لنا المكتبة الإسلامية أعدادا ضخمة من المراجع والمؤلفات التى تمثل مظهرا من مظاهر هذا النشاط العظيم ، بل لقد زخرت مكتبات أخرى فى لغات أخرى وأمم أخرى بكنوز رائعة ، يقف العقل أمامها حائرا مشدوها يخالجه مزيج من المهابة والإعجاب ، ويملكه معنى عميق من معانى الخشوع أمام هذه العظمة التى لا كفاء لها إلا الإقرار بالخضوع والعجز .

ولكى ندرك مدى هذه العناية الكبرى للمسلمين نحو القرآن الكريم فى جميع عصورهم ومراحل حياتهم ، وعلى أيدى علمائهم وحكامهم ، ووزرائهم وأغنيائهم ، وأهل الإحسان فى كل ناحية من نواحى الإحسان لكى ندرك مدى هذه العناية الكبرى علينا أن نلتفت إلى ما سجله التاريخ الفكرى للحضارة الإسلامية ، وللمسلمين ، وكيف كانت هذه الحضارة الإسلامية مصدر إشعاع على العالم الأوربى .

ولقد وجه إلى بعض إخوانى المسلمين عدة تساؤلات مختلفة من حيث ألفاظها وعباراتها ، ولكنها متفقة من حيث المضمون والهدف ، لأنها كلها تدور حول سؤال واحد مؤداه :) ما هو المقياس العلمى الإسلامى

للمفسر ؟) ، وللأمانة العلمية أنقل هذه التساؤلات : فقد قال لى بعض إخوانى المسلمين : (هل يقاس مفسر القرآن الكريم بحصوله على الدرجة العلمية فى التفسير) ؟ وقال لى أخ آخر : (هل الذين يقومون بتدريس علم التفسير فى المؤسسات العلمية كالجامعات والمعاهد والمدارس يعتبرون فى المقاييس العلمية الإسلامية من المفسرين) ؟ وقال لى أخ آخر : (هل أئمة المساجد والوعاظ الذين يفسرون القرآن الكريم ويلتف الناس حولهم فى شكل حلقات علمية ليستمعوا لهم يعتبرون مفسرين) ؟ وسألنى بعض الإخوان عن أشخاص معينين ذاكرين لى أسماءهم : (هل هؤلاء الأشخاص يعتبرون مفسرين فى المقياس العلمى الأكاديمى ؟) ولا أريد أن أذكر أسماء من ذكروهم .

من هذا المنطلق كانت فكرة كتابة هذا البحث ، وقد جعلت عنوانه : (المفسر فى المقياس العلمى الإسلامى)

وفى رأيى : أن الإنسان لا يكون مفسرا إلا إذا اجتاز مرحلتين بنجاح وامتياز :

المرحلة الأولى : مرحلة الإعداد والتوجيه

والمرحلة الثانية : مرحلة البذل والعطاء .

فالمرحلة الأولى يعد فيها الإنسان ويوجه ويبحث ويطلع ، وهذه المرحلة سبب فى المرحلة الثانية ، وهى مرحلة البذل والعطاء ، وهذه المرحلة الثانية نتيجة وثمرة من نتائج المرحلة الأولى .

فإذا اجتاز الإنسان هاتين المرحلتين بنجاح وتقدم فإنه يعد فى المقاييس العلمية الأكاديمية الإسلامية من المفسرين وإذا قصر الإنسان أو أهمل فى هاتين المرحلتين فلا يعد من المفسرين فى المقياس العلمى الأكاديمى الاسلامى .

ومن هذا المنطلق فقد رتبت هذا البحث على مقدمة وقسمين وخاتمة وجعلت عنوان المقدمة : (عناية المسلمين بالعلوم المختلفة لخدمة القرآن الكريم) وتكلمت فى القسم الأول عن (مرحلة الإعداد والتوجيه بالتفصيل) وفى القسم الثانى فصلت القول فى (مرحله البذل والعطاء) وخصصت الخاتمة لبيان أهم النتائج المستخلصة من البحث(١) .

---

(١) نظرا لضيق المساحة فى الحولية سنقصر حديثنا فى هذا العدد على المقدمة والقسم الأول ، أما بقية البحث فنأمل أن ينشر فى العدد القادم إن شاء الله .

المقدمة

(عناية المسلمين بالعلوم المختلفة لخدمة القرآن الكريم)

« لا نكاد نعرف علما من العلوم التى اشتغل بها المسلمون فى تاريخهم الطويل إلا كان الدافع له هو خدمة القرآن الكريم من ناحية ذلك العلم » .

وبالأمثلة تتضح القضية :

فعلوم البلاغة : (المعانى ، والبيان ، والبديع) فائدتها توضيح وإبراز خصائص اللغة العربية وإظهار جمالها ، ولقد كان الغرض من دراسة هذه العلوم هو الوصول إلى غاية عليـــا وهى : بيان نواحى الإعجاز اللغوى فى القرآن الكريم ، والكشف عن أسراره الأدبية .

وعلم النحو : وظيفته تقويم اللسان ، وعصمته من الخطأ ، وقد كان الدافع لدراسة هذا العلم هو خدمة النطق الصحيح للقرآن الكريم .

ومن العلوم التى اشتغل بهـا المسلمون : علم المفردات . بمعنى : (تتبع واستقراء مفردات اللغــة العربية ، والتماس شواردها ، وضبط ألفاظها والكشف عن شواهدها وتحديد معانيها) ، ولقد كان الباعث على دراسة هذا العلم هو صيانة ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه أن تعدو عليها عوامل التحريف أو الغموض .

وكان الباعث على دراسة علم التجويد وعلم القراءات هو ضبط أداء القرآن الكريم وحفظ لهجاته .

ودرس المسلمون علم الكلام (علم التوحيد) لبيان ماجاء به القرآن الكريم من العقائد ، وبيان منهجه فى الإستدلال عليها .

ومن المعلوم: أن علم الفقه معناه: العـلم بالأحكام الشرعية العملية المستنبطة من أدلتهـا التفصيلية، وقد درس المسلمون هذا العـلم من أجل استنباط تلك الأحكام التى وردت فى بعض النصوص القرآنية وعلم أصول الفقه: معناه: معرفة دلائل الفقه إجمالا، وكيفية الإستفادة منها، ومعرفة المستفيد أى المجتهد، وقـد تعلم المسلمون هذا العلم من أجل بيان قواعد التشريع العام، وطريقة الإستنباط منه.

وقل مثل هذا بالنسبة لعلم التاريخ الذى عنى به المسلمون تحقيقاً لما جاء به القرآن الكريم فى مثـل قوله تعالى: (نحن نقص عليك أحسن القصص)(١).

(وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك)(٢) (ولقد جاءهم من الأنباء مافيه مزدجر)(٣).

وقل مثل هذا أيضاً فى علوم تقويم البلدان وتخطيط الأقاليم التى يوحى بها مثل قوله تعالى: (... سيروا فى الأرض)(٤) (فامشوا فى مناكبها)(٥).

وقل مثل هذا كذلك فى علوم الكائنات التى يوحى بها مثل قوله تعالى: (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى)(٦) (ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم

---

(١) فى الآية ٣ من سورة سيدنا يوسف عليه السلام.

(٢) فى الآية ١٢٠ من سورة سيدنا هود عليه السلام.

(٣) الآية ٤ من سورة القمر.

(٤) فى سور وآيات متعددة فى القرآن.

(٥) فى الآية ١٥ من سور الملك.

(٦) فى الآية ٣٠ من سورة الأنبياء.

يجعله ركاما. فترى الودق يخرج من خلاله، وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار. يقلب الله الليل والنهار، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار، والله خلق كل دابة من ماء. فمنهم من يمشى على بطنه، ومنهم من يمشى على رجلين، ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء، إن الله على كل شىء قدير)(١).

وهكذا: علوم الفلك والنجوم والطب، وعلوم الحيوان والنبات، وغير ذلك من العلوم الإنسانية، لا يخلو علم منها أن يكون الاشتغال به — فى نظر من اشتغل به من المسلمين مقصوداً به خدمة القرآن الكريم. أو تحقيق إيحاء أوحى به القرآن الكريم حتى الشعر إنما اشتغلوا به ترقية لأذواقهم، وتربية لملكاتهم، وإعداداً لها كى تفهم القرآن الكريم وتدرك جمال القرآن الكريم وحتى العروض: كان من أسباب عنايتهم به أنه وسيلة لمعرفة بطلان قول المشركين: إن محمداً شاعر، وإن ماجاء به شعر(٢).

ولقد درس المسلمون علم التفسير لبيان معانى القرآن الكريم والكشف عن مراميه، ودراسة علم التفسير متوقفة على دراسة كل العلوم. سواء أكانت علوماً دينية أم عربية، أم حديثة، لأن القرآن الكريم تنزيل من حكيم حميد، ومشتمل على كل شىء مما يحتاج إليه الإنسان فى المعاش والمعاد، وصدق الله العظيم حيث يقول:

(ما فرطنا فى الكتاب من شىء)(٣) وسأفصل القول فى هذه النقطة فيما يأتى إن شاء الله تعالى.

---

(١) الآيات ٤٣ — ٤٥ من سورة النور.

(٢) تفسير القرآن الكريم — الأجزاء العشره الأولى — لفضيلة الإمام الأكبر محمود شلتوت — رحمة الله تعالى — ص٧٦٦ بتصرف.

(٣) فى الآيه ٣٨ من سورة الأنعام.

وتبعاً للأنحاء والاتجاهات المختلفة فى نظر المسلمين إلى القرآن الكريم واشتغالهم به نرى التفاسير ذات مناهج مختلفة وألوان متعددة فمنها ما يغلب عليه تطبيق قواعد النحو وبيان إعراب الكلمات وبنائها ومنها ما يغلب عليه بيان جوانب البلاغة والإعجاز، ومنها ما يهتم بالفقه والتشريع وبيان أصول الأحكام إلخ.

وقد فصلت القول فى هذا فى بحثى السابق: (مناهج التفسير بين القديم والحديث)(١).

وهنا نتساءل فنقول: هذا هو دور الذين لديهم القدرة على خدمة القرآن الكريم من هذه الجوانب العلمية، لكن الذين لم يكن لديهم القدرة على معالجة القرآن الكريم من هذه النواحى العلمية المتقدمة ألم يكن لهم دور فى خدمة القرآن الكريم من جوانب أخرى؟

والجواب: إن الذين فاتتهم القدرة على خدمة القرآن الكريم من الجوانب العلمية السابقة لم يفتهم أن يخدموا القرآن الكريم من نواح أخرى جعلوها مظهراً من مظاهر عنايتهم بالكتاب العزيز. وسبيلا إلى نيل حظهم من رضا الله سبحانه وتعالى وثوابه، والواقع يدلنا على ذلك:

فهذا يكتب القرآن الكريم بخط جميل، وهذا يزخرف صفحاته وأوائل سوره وثالث يرقم آياته، ورابع يطرز سجله وغلافه، وخامس يرصد الأموال لتحفيظه، والمكافأة على التبريز فيه، ومازالت المساجد إلى يومنا هذا محتفظة بمظهر من هذه المظاهر هو تلك المقارىء التى يجتمع فيها القراء يتبادلون فيها تلاوته وتجويده والاستماع إليه.

---

(١) راجع بحثنا: (مناهج التفسير بين القديم والحديث بحث منشور بحولية كلية أصول الدين بالقاهرة — العدد الخامس ١٤٠٨ هـ — ١٩٨٨ م ص٩٣ — ١٣١

والعناية بالقرآن الكريم مازالت قائمة إلى اليوم، وستظل — إن شاء الله تعالى — إلى يوم القيامة، فهؤلاء هم المسلمون، على الرغم من تفرقهم فى الأقاليم والبلاد، وتفرقهم فى السلطان والنفوذ، وعلى الرغم من ضعفهم المادى أمام الدول الغربية، وبالرغم من غزوهم الفكرى والثقافى بعلوم متنوعة وثقافات متعددة ذات ألوان مادية، وأدبية، واجتماعية وتشريعية بالرغم من ذلك كله، فإنهم لا يزالون يعتصمون بالقرآن الكريم، ويدينون بقدسية القرآن الكريم. ويتآزرون على خدمة القرآن الكريم، وإنهم ليستشرفون جميعاً لمجىء ذلك اليوم الذى يعود فيه سلطان القرآن الكريم، فيكون التشريع لتشريع القرآن الكريم، وتكون الأخلاق أخلاق القرآن الكريم، ويكون الهدى هدى القرآن الكريم، والله سبحانه وتعالى أسأل أن يكون ذلك قريباً اللهم آمين.

نستنتج مما سبق

أنه لم يظفر كتاب من الكتب سماوياً كان أو أرضياً فى أية أمة من الأمم قديمها وحديثها ما ظفر به القرآن الكريم على أيدى المسلمين، ومن شارك فى علوم المسلمين، وهذا يدلنا على مدى العناية بالكتاب العزيز.

وإذا أردنا أن نفلسف هذا الاتجاه من وجهة النظر العلمية فإنى أقول: لعل هذا الموقف يفسر لنا جانباً من الرعاية الإلهية للقرآن الكريم الذى تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظه وتخليده فى قوله تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) (الآية ٩ من سورة الحجر) فما كان الحفظ والتخليد بمجرد بقاء ألفاظه وكلماته مكتوبة فى المصاحف مقروءة بالألسنة متعبداً بها فى المساجد والمحاريب وكفى، إنما الحفظ والخلود بما تقدم وبهذه العظمة التى شغلت الناس وملأت الدنيا، وكانت مناراً لأكبر حركة فكرية

اجتماعية عرفها البشر. ومن فضل الله سبحانه وتعالى علينا فى هذا العصر أن الركب سائر لم يقف ولم يفتر، وأن هذه العناية بالقرآن الكريم ماتزال تسيطر على المسلمين، وتنتقل فيهم من جيل إلى جيل، يورثها الآباء للأبناء، وستظل كذلك — إن شاء الله سبحانه وتعالى — حتى يرث الله سبحانه وتعالى — الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين(١).

---

(١) تفسير الشيخ محمود شلتوت ص ٨،٧ بتصرف.

القسم الأول

(تفصيل القول فى مرحلة الإعداد والتوجيه)

لكى يعطى التفسير نتائجه المرجوة لابد أن يعتبر الشخص الذى يقوم بتفسير القرآن الكريم مفسرا فى المقياس العلمى الأكاديمى الإسلامى.

ولا يكون كذلك إلا إذا حقق أعلى مراتب التفسير، ولا يستطيع أن يحقق أعلى مراتب التفسير إلا إذا اجتازو قطع مرحلتين بنجاح على وجه الامتياز:

المرحلة الأولى: (مرحلة الإعداد والتوجيه).

والمرحلة الثانية: (مرحلة البذل والعطاء).

وأفصل القول — بعون الله سبحانه وتعالى وتوفيقه — فى (مرحلة الإعداد والتوجيه) فأقول وبالله تعالى التوفيق:

(المقصود بمرحلة الإعداد والتوجيه)

هى عبارة عن الفترة التى يمكثها الشخص المعد لأن يكون مفسرا من أجل تأهيله وتدريبه وتوجيهه ويقطع هذه المرحلة ويجتازها بنجاح وتقدم على وجه الامتياز.

(مجالات الإعداد والتوجيه)

للتأهيل والإعداد والتوجيه مجالات متعددة على النحو التالى:

١ — (الإعداد والتوجيه فى مجالات العقيدة والسلوك والأخلاق).

يشترط لإعداده فى هـذا المجال أن يتربى وينشأ على العقيدة الصحيحة وعلى امتثال الأوامر واجتناب النواهى، فى مجال التشريعات العملية وفى مجال الأخلاق.

فقد جاء فى الإتقان: يشترط فى المفسر أن يكون اعتقاده صحيحا، وأن يلزم سنة الدين، وذلك يتحقق:

(أ) بألا يكون المفسر صاحب بدعة، أى يتجنب المحدثات، لأن كان صاحب بدعة لا يؤتمن على تفسير كتاب الله تعالى.

(ب) وألا يكون مغموصا عليه فى دينه، وألا يكون متهما بالإلحاد أو بالهوى، فإن من كان مغموصا عليه فى دينه لا يؤتمن على الدنيا، فكيف يؤتمن على الدين، وإذا كان لا يؤتمن على الكلام فى الدين على وجه العموم فكيف يؤتمن على الكلام فى أشرف الكتب على الإطلاق وهو القرآن الكريم؟ ثم هو لا يؤتمن — بالنسبة للدين — على الإخبار عن عالم، فكيف يؤتمن فى الإخبار عن أسرار الله تعالى؟

وإذا كان متهما بالإلحاد فإنه يبغى الفتنة ويضر الناس بخداعه، كأسلوب الباطنية وغلاة الرافضة وإن كان متهما بالهوى، فإن هواه يحمله على ما يوافق بدعته، كدأب القدرية، فإن أحدهم يصنف الكتاب فى التفسير وهدفه صد الناس عن اتباع السلف وصدهم عن لزوم طريق الهدى.

(ج) وأن يكون مقصده صحيحا وأن يقصد بعمله وجه الله تعالى، ليلقى التسديد، فقد قال الله تعالى: (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) (١).

(١) فى الآيه ٦٩ من سورة العنكبوت

وهنا نتساءل فنقول: متى يخلص قصده؟ والجواب: إنما يخلص القصد إذا زهد فى الدنيا، فلا يجعل الدنيا غاية، وإنما يجعلها وسيلة إلى الآخرة والعمل الصالح، وذلك بألا يتكالب على الدنيا ولا يأخذ حق غيره لأنه إذا رغب فى الدنيا لم يؤمن أن يتوسل بذلك إلى غرض يصده عن قصده، ويفسد عليه صحة عمله (١).

ومن استوفى هـذا الشرط بأن كان صحيح العقيدة وكان ملازما لسنة الدين ممتثلا للأوامر الشرعية ومجتنبا للنواهى فإن الله سبحانه وتعالى يمنحه علما من عنده دون أن يأخذه عن طريق الكتب أو عن طريق المعلمين، وإنما يقذفه الله سبحانه وتعالى فى قلبه مباشرة وهو ما يطلق عليه (العلم اللدنى): أى من لدنه سبحانه وتعالى، يعنى من عنده، وذلك مثل العلم الذى وهبه الله سبحانه وتعالى للعبد الصالح صاحب سيدنا موسى عليه السلام والذى قد ذكرت قصته مع سيدنا موسى عليه السلام فى سورة الكهف (٢).

وصدق الله العظيم حيث يقول فى هذه القصة (فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما) (٣).

فهذا العلم يورثه الله سبحانه وتعالى لمن عمل بما علم، وإليه الإشارة بقوله تعالى: (واتقوا الله ويعلمكم الله) (٤)

(١) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى بتصرف
(٢) أنظر الآيات ٦٠ — ٨٢ من سورة الكهف
(٣) الآية ٦٥ من سورة الكهف
(٤) فى الآيه ٢٨٢ من سورة البقرة

وبقوله صلى الله عليه وسلم : (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم) .

قال السيوطى : « ولعلك تستشكل علم الموهبة (١) وتقول : هذا شيء ليس فى قدرة الإنسان ، وليس الأمر كما ظننت من الإشكال ، والطريق فى تحصيله ارتكاب الأسباب الموجبة له من العمل والزهد ، فإنه لا يحصل للناظر فهم معانى الوحى ، ولا تظهر له أسراره وفى قلبه بدعة أو كبر ، أو هوى ، أو حب دنيا ، أو وهو مصر على ذنب ، أو غير متحقق بالإيمان أو ضعيف التحقيق أو يعتمد على قول مفسر ليس عنده علم ، أو راجع إلى معقوله .

فهذه كلها حجب وموانع بعضها آكد من بعض ، وفى هذا المعنى قوله تعالى : (سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق) (٢) .

قال سفيان بن عيينة : أى أنزع عنهم فهم القرآن الكريم) أخرجه ابن أبى حاتم » (٣).

وقال الإمام الشافعى — رحمه الله تعالى ورضى عنه :

شكوت إلى وكيع سوء حفظى ... فأرشدنى إلى ترك المعاصى

وأخبرنى بأن العلم نور ... ونور الله لا يهدى لعاصى

---

(١) وهو العلم اللدنى المتقدم .

(٢) فى الآية ١٤٦ من سور الأعراف .

(٣) الإتقان فى علوم القرآن للإمام السيوطى ، والبرهان فى علوم القرآن للإمام الزركشى ببعض تصرف

والنتيجة التى نخرج بها من هذا الكلام : أن من لم يتحقق فيه هذا الشرط : (صحة الاعتقاد والمقصد ولزوم سنة الدين ، وامتثال الأوامر واجتناب النواهى) لا يكون مفسراً فى المقياس العلمى الاسلامى .

(أ) فمن كانت عقيدته غير صحيحة مثل عقيدة الشيعة الاثنى عشرية والبابية والبهائية ، وكعقيدة الروافض والخوارج والمرجئة والقدرية ، فمثل هؤلاء لا يكونون مفسرين .

(ب) ومن لم يلزم سنة الدين ولم يمتثل الأوامر ولم يجتنب النواهى كأن يكون متكالبا على الدنيا لا يبالى بما إذا كان قد جمعها من حلال أو حرام ويأخذ حق غيره ، وكأن يكون من المصرين على الذنوب ، فمثل هؤلاء لا يكونون مفسرين .

الاعداد والتوجيه فى مجال الثقافة والتعليم

لابد للإنسان الذى يعد لأن يكون مفسراً أن يؤهل ويوجه من الناحية العلمية ، وإعداده وتوجيهه من جانب التعليم والثقافة يكون على فترتين من الزمن ، يحصل فيهما هذا الانسان العلوم والمعارف التى تؤهله ليكون من المفسرين :

الفترة الزمنية الأولى

فترة الدراسة التمهيدية

وفى هذه الفترة الزمنية الأولى يجب أن يحصل هذا الإنسان مايلى :

١ — القرآن الكريم كله حفظا وترتيلا : (أى تجويدا) ومنهج التحصيل فى هذا المجال أن يحفظ القرآن الكريم أولا بالتلقى من أفواه المشايخ العارفين بأحكام التجويد ، حتى يكون نطقه للقرآن الكريم صحيحا ثم بعد ذلك يتعلم أحكام وقواعد علم الترتيل (التجويد) دراسة نظرية وتطبيقية .

ومن هذا المنطلق : أن من لم يحصل القرآن الكريم كله حفظا وتجويدا لايكون مفسراً فى المقياس العلمى الإسلامى ، لأنى لا أتصور إنسانا يفسر نصا قرآنيا لايحفظه ، كما أنى لا أتصور إنسانا يفسر نصا قرآنيا يحفظه ولكن حفظه له على وجه الخطأ فى الأداء لأنه لا يعلم قواعد علم التجويد .

٢ — علم القراءات : لابد للإنسان الذى يعد لأن يكون من المفسرين أن يدرس علم القراءات بالتفصيل ، والقراءات جمع قراءة ، والقراءة مصدر سماعى للفعل (قرأ) هذا هو معناها فى اللغة .

وفى الاصطلاح : مذهب يذهب إليه إمام من أئمة القراء مخالفا به غيره فى النطق بالقرآن الكريم مع اتفاق الروايات والطرق عنه ، ومخالفة هذا الإمام على وجه الإطلاق : أى سواء أكانت هذه المخالفة فى نطق الحروف أو فى نطق هيئاتها وعلم القراءات هو العلم بكيفيات أداء كلمات القرآن الكريم واختلافها(١)

---

(١) راجع: الإتقان للسيوطى ، ومناهل العرفان للشيخ الزرقانى

لابد لهذا الانسان أن يدرس أنواع القراءات وأحكامها ونسبة كل قراءة إلى صاحبها دراسة نظرية وتطبيقية ولابد أن يعرف الخلفية التاريخية للقراء .

وقد يقال : ماصلة هذا العلم بالتفسير ؟ ولماذا يجب على الإنسان الذى يؤهل لأن يكون مفسرا أن يتعلم هذا العلم ؟

والجواب :

(أ) يستطيع الإنسان بواسطة هذا العلم أن يعرف كيفية النطق بالقرآن الكريم ، ويمكنه ترجيح بعض الوجوه المحتملة على بعض

(ب) أن اختلاف القراءات له حكم وفوائد تتصل بتفسير القرآن الكريم ، فبعض القراءات تبين مالعله يكون مجملا فى القراءة الأخرى ومن فوائدها : بيان عقيدة ضل فيها بعض الناس ، ومن الفوائد : بيان لفظ مبهم على البعض .

(ج) وأن المعنى قد يختلف باختلاف القراءات(١)

ومن هذا المنطلق كان تحصيل هذا العلم واجبا على الانسان الذى يعد لأن يكون مفسرا .

٣ — حفظ الأحاديث والآثار الصحيحة من الكتب المعتبرة كصحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن الترمذى وابن ماجه إلخ خاصة الأحاديث والآثار التى لها صلة بتفسير القرآن الكريم ، لأن تفسير النص القرآنى قد يكون فى الأحاديث أو فى الآثار كما ذكرت فى بحثى السابق(٢)

---

(١) انظر فى هذا الموضوع بالتفصيل البرهان للزركشى والاتقان للسيوطى ومناهل العرفان للزرقانى .

(١) انظر بحثنا (مناهج التفسير بين القديم والحديث)

وانطلاقاً مما تقدم : أن من لم يحصل علم القراءات بالتفصيل لايكون مفسرا ، وكذلك من لم يحفظ الأحاديث والآثار الصحيحة خاصة التى لها صلة بالتفسير لايكون مفسراً فى المقياس العلمى الإسلامى .

٤ — دراسة العلوم المختلفة على سبيل الإيجاز ، سواء أكانت هذه العلوم دينية أم لغوية أم عقلية أم حديثة .

يأخذ الإنسان الذى يعد لأن يكون مفسرا فكرة عامة سهلة موجزة عن مبادىء كل علم ومسائله وقضاياه وموضوعاته ولا يتوسع فى ذلك فى تلك الفترة التمهيدية : وإنما التوسع فيها يكون فى الفترة الزمنية الثانية التى سنتحدث عنها إن شاء الله تعالى .

وينبغى أن يعلم : أن هذه الفترة الزمنية لاتحدد بزمن معين ، بل المدار فى ذلك على تحصيل هذا الانسان لما تقدم على الوجه المطلوب طالت المدة أم قصرت :

الفترة الزمنية الثانية

فترة الدراسة الأكاديمية التحليلية التخصصية

فى هذه الفترة الثانية (فترة الدراسة الأكاديمية التخصصية) يجب على هذا الإنسان الذى يعد لأن يكون مفسراً أن يحصل ويدرس العلوم التى قلنا عنها فى الفترة الأولى التمهيدية إنه يجب عليه أن يدرسها على وجه الاجمال هذه العلوم نفسها يجب عليه فى هذه الفترة الثانية أن يحصلها على سبيل التفصيل والتحليل والتخصص سواء أكانت علوما عربية أودينية ، أوعقلية أو حديثة ، خاصة للعلوم التى لها علاقة قوية بالقرآن الكريم وتفسيره .

فلابد للمفسر من دراسة كل علم وثقافة لأن القرآن مشتمل على كل علوم الدين وعلوم الدنيا ، ويتضمن كل شىء يحتاج إليه المخلوقات فى المعاش والمعاد ، وصدق الله العظيم حيث يقول : (مافرطنا فى الكتاب من شىء)(١)

فائدة هذه العلوم وصلتها بالقرآن وتفسيره

فهم القرآن الكريم وبيان معناه متوقف على علم التفسير : وعلم التفسير متوقف على معرفة كل العلوم ، لأن القرآن الكريم مشتمل على كل شىء كما تقدم ، فهذه العلوم وسيلة لغاية عظيمة وهى التفسير . أو هى أسباب للتفسير أو هى بمثابة المقدمات ، والتفسير بمثابة النتائج والثمار .

وقد جاء فى الإتقان : « . . . وعلوم القرآن وما يستنبط منه بحر لا ساحل له ، فهذه العلوم — التى هى كالآلة للمفسر ، لايكون مفسراً إلا بتحصيلها : فمن فسر بدونها كان مفسراً بالرأى المنهى عنه ، وإذا فسر مع حصولها لم يكن مفسراً بالرأى المنهى عنه » اهـ(٢)

فكما أن أصحاب الحرف كالحداد والنجار وغيرهما لهم آلات يستعينون بها على حرفهم ، وتكون هذه الآلات وسيلة لأداء الغرض المطلوب على أحسن وجه فكذلك هذه العلوم بمثابة هذه الأدوات والآلات للمفسر ، لأنها توصل إلى تفسير القرآن الكريم على الوجه المطلوب .

وإنما اختلفت العلوم التى يدرسها المفسر لأن القرآن الكريم يبحث من جوانب متعددة فتارة يبحث من الجانب اللغوى وتارة يبحث من ناحية العقيدة وتارة يبحث من ناحية الأحكام الشرعية وكيفية استنباطها من النص القرآنى ، وتارة يبحث من ناحية الظواهر الكونية إلخ

---

(١) فى الآية ٣٨ سورة الأنعام (٢) راجع الاتقان للسيوطى

والقرآن الكريم — كما ذكرت — مشتمل على كل شيء، ومن هذا المنطلق فإن التفسير محتاج إلى معرفة كل العلوم لأنها تعصم المفسر من الخطأ وتحميه من القول على الله بغير علم.

وما تقدم إنما هو بيان لفائدة العلوم على وجه العموم وصلتها بتفسير القرآن الكريم، وأما بيان فائدة كل علم وعلاقته بتفسير القرآن الكريم فهذا يتطلب منا بيان كل علم وفائدته وعلاقته بالتفسير، وهذا ما أوضحه إن شاء تعالى فأقول وبالله تعالى التوفيق:

العلوم التى يجب تحصيلها على من يعد لأن يكون مفسرا.

أولا: علوم اللغة العربية، وهذه العلوم تشمل ما يأتى:

١ — علم المفردات (بيان معانى الكلمات فى اللغة العربية)

٢ — علم النحو.

٣ — علم الصرف.

٤، ٥، ٦ — علوم البلاغة الثلاثه: (المعانى والبيان والبديع).

٧ — فقه اللغة العربية.

٨ — أدب اللغة العربية (شعرا ونثرا).

ثانيا: العلوم الدينية، وهذه العلوم تشمل ما يأتى:

١ — علم أصول الدين: (علم التوحيد).

٢ — علم الفقه.

٣ — علم أصول الفقه.

٤ — علم الحديث بقسميه: (علم الحديث دراية وعلم الحديث رواية)

٥ — كل ما يتصل بالثقافة القرآنية (علوم القرآن الكريم) مثل (معرفة

الأدوات التي يحتاج إليها المفسر) ونحو: (علاقة الكلمات بعضها ببعض واستعمالها) ومثل: (وسائل الإقناع من القسم والأمثال والجدل) ونحو: (إعجاز القرآن) ومثل: (ترجمة القرآن) ونحو: (نزول القرآن وما يتعلق به) ومثل: (المحكم والمتشابه) ونحو (موضوع النسخ) ومثل: (موهم الاختلاف والتناقض) ومثل: (جمع القرآن وتدوينه) ونحو: (اللفظ القرآنى: دلالته وأقسامه) ومثل: (الاستنباط) ومثل (أسباب النزول) ومثل: (قصص القرآن) سواء ما يتعلق بالأنبياء والرسل أم بغيرهم ومثل: (الدخيل فى التفسير) إلخ.

٦ — العلم بسيرة النبى ﷺ وأصحابه رضى الله تعالى عنهم أجمعين.

ثالثا: العلوم العقلية وهذه تشمل:

١ — علم المنطق.

٢ — علوم الفلسفة (سواء أكانت فلسفة إسلامية أم فلسفة قديمة يونانية أم فلسفة حديثة).

رابعا: العلم بوجه هداية البشر بالقرآن الكريم.

خامسا: العلم بأحوال العالم العلوى والسفلى

ومن ذلك. معرفة أحوال البشر فى أطوارهم وأدوارهم، ومناشىء اختلاف أحوالهم من قوة وضعف، وعز وذل، وعلم وجهل، وإيمان وكفر، وهذا يحتاج إلى علوم كثيرة:

١ — منها علم التاريخ، ومن ذلك دراسة تاريخ الملل والنحل والأديان والمذاهب، ودراسة تاريخ الفرق

٢ — ومنها علم الاجتماع.

٣ — ومنها علم الجغرافيا.

٤ — ومنها علم الفلك .

٥ — ومنها علم الجيولوجيا .

٦ — ومن ذلك علم الطب .

٧ — ومن ذلك علوم الحيوان والنبات .

٨ — ومن ذلك علوم الرياضة : (الحساب والجبر والهندسة) إلى غير ذلك من العلوم الكونية (١) .

سادسا : الاطلاع على مراجع التفسير سواء أكانت مطبوعة أم مخطوطة ومعرفة مناهج أصحابها على النحو الذى بينته فى بحثى السابق : (مناهج التفسير بين القديم والحديث) (٢) والوقوف على خبرات وتجارب المفسرين القدامى والمحدثين ، ومعرفة تاريخ هؤلاء المفسرين ومكانتهم فى العلم على وجه العموم وفى التفسير على سبيل الخصوص .

سابعاً : الاطلاع على مراجع علوم القرآن الكريم سواء أكانت مطبوعة أم مخطوطة ، والوقوف على مناهج مؤلفيها وعلى خبراتهم وتجاربهم ومعرفة تاريخهم . ومنزلتهم العلمية .

ثامنا : معرفة الشبه والتهم والمطاعن التى توجه إلى القرآن الكريم من أعداء الإسلام ، سواء أكان هؤلاء الأعداء من الداخل أم من الخارج وهذا يتطلب دراسة اللغات الأجنبية .

فائدة كل علم من هذه العلوم وعلاقته بالقرآن وتفسيره

(١) مقدمة تفسير المنار بتصرف

(٢) راجع هذا البحث فى حولية كلية أصول الدين بالقاهرة — العدد الخامس عام ١٤٠٨هـ — ١٩٨٨م

بعد أن ذكرت الفائدة العامة للعلوم المتقدمة ، وأنها بمثابة الآلة للمفسر وأنها تعصمه من الوقوع فى الخطأ ، وتحميه من القول على الله تعالى بغير علم — بعد أن ذكرت ذلك أريد أن أبين هنا فائدة كل علم على وجه الاستقلال وصلته بالقرآن الكريم وتفسيره ، ولكن المقام لا يتسع لذكر فائدة كل علم وعلاقته بالتفسير فى هذا البحث الموجز ، ولكنى سأختار — بتوفيق الله تعالى — نماذج من هذه العلوم ، لتكون بمثابة الأمثلة فيقاس عليها غيرها من العلوم ، فأقول وبالله تعالى التوفيق :

(أثر علم المفردات فى فهم القرآن الكريم وإصابة وجه الصواب)

يستطيع المفسر بواسطة هذا العلم أن يشرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع ، ولابد من التوسع والتبحر فى هذا العلم ، فاليسير لا يكفى ، إذ ربما كان اللفظ مشتركا ، والمفسر يعلم أحد المعنيين أو بعض معانيه ، ويخفى عليه الآخر ، وقد يكون الآخر الذى خفى عليه هو المراد .

قال مجاهد : (لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم فى كتاب الله إذا لم يكن عالما بلغات العرب) .

فلا يصح للمفسر أن يكتفى بقول فلان وفهم فلان ، فإن كثيراً من الألفاظ كانت تستعمل فى زمن التنزيل لمعان ، ثم غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد وأوضح ذلك بالمثال : انظر إلى لفظ (التأويل) فقد اشتهر بمعنى التفسير مطلقا أو على وجه مخصوص ، ولكنه جاء فى القرآن بمعان أخرى (١) .

(١) راجع (التأويل) فى اللغة وفى الاصطلاح وفى استعمالات القرآن الكريم فى لسان العرب ، وفى الإتقان للسيوطى ، وفى مناهل العرفان للزرقانى وفى كتاب (التفسير والمفسرون) للدكتور محمد حسين الذهبى

لذلك يجب على من يريد الفهم الصحيح أن يتتبع الاصطلاحات التى حدثت فى الملة ليفرق بينها وبين ما ورد فى القرآن الكريم ، فكثيرا ما يفسر البعض كلمات القرآن الكريم بالاصطلاحات التى حدثت فى الملة بعد القرون الثلاثة الأولى ، ولكن على المفسر المدقق أن يفسر القرآن الكريم بحسب المعانى التى كانت مستعملة فى عصر نزوله ، والأحسن أن يفهم اللفظ من القرآن الكريم نفسه ، بأن يجمع ما تكرر فى مواضع منه ، وينظر فيه ، فربما استعمل بمعان مختلفة ، كلفظ الهداية وغيره ، ويحقق كيف يتفق معناه مع جملة معنى الآية ، فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه ، وقد قالوا : إن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضا ، وإن أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ وموافقته لما سبق له من القول واتفاقه مع جملة المعنى ، وائتلافه مع القصد الذى جاء له الكتاب بجملته (١) .

(علم النحو وفائدته وعلاقته بالتفسير)

من المعلوم : أن علم النحو معناه : العلم الذى يعرف به أحوال الكلمات العربية من حيث الإعراب والبناء .

ولا بد من اعتبار هذا العلم فى التفسير ، لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب ، أخرج أبو عبيد عن الحسن أنه سئل عن الرجل يتعلم العربية يلتمس بها حسن المنطق ، ويقيم بها قراءته ، فقال : (حسن فتعلمها فإن الرجل يقرأ الآية فيعيى بوجهها فيهلك فيها) ويقول أبو طالب الطبرى فى أوائل تفسيره أثناء الكلام على شروط المفسر وآدابه : « ... وقد رأيت بعضهم يفسر قوله تعالى : (قل الله ثم ذرهم ...) بقوله : « إنه ملازمة قول الله » ، ولم يدر الغبى أن هذه جملة حذف منها الخبر ، والتقدير : الله أنزله » اه .

(١) مقدمة تفسير المنار بتصرف

والإعراب هو إظهار حركة آخر الكلمة من أجل أن نفهم المعنى ، ومن أجل أن يتبين الغرض الذى سيق من أجله الكلام .

وعلى الناظر فى كتاب الله تعالى والكاشف عن أسراره النظر فى الكلمة وصيغتها ومحلها وموقعها فى الكلام من الابتداء أو الجواب أو الطلب أو الإخبار أو انتهاء الكلام وغير ذلك .

ومن المعلوم أن الإعراب فرع المعنى ، إذ لا يستقيم إعراب ما لم نفهم المعنى ومن هنا كان الواجب الأول أن نفهم المعنى ثم يكون الإعراب المبنى عليها .

فلابد فى التفسير من توضيح المعنى أولا لأنها الهدف الأسمى من التفسير والإنشغال بالإعراب عن توضيح المعنى خروج عن التفسير ، والإشتغال بتوضيح المعنى وترك الإسراف فى الإعراب هى الطريقة المثلى فى التفسير (١) فلا يعمد إلى الإعراب إلا عند قيام احتمالات ، فيقال : يكون الإعراب كذا إن كان المعنى كذا ؛ فمثلا قول الله تعالى : (ولقد آتيناك سبعا من المثانى (٢) ....) إن كان المراد بالمثانى القرآن فـ (من) للتبعيض ، وإن كان المقصود بها سورة الفاتحة فـ (من) بيانية لقوله : (سبعا) .

(علم الصرف وفائدته للمفسر)

يستطيع المفسر بواسطة هذا العلم أن يعرف أمرين لهما أثرهما فى فهم القرآن الكريم :

(١) الأصلان فى علوم القرآن للأستاذ الدكتور محمد عبد المنعم القيعى .

(٢) فى الآية ٨٧ من سورة الحجر .

(أ) الأمر الأول : يستطيع المفسر بواسطة هذا العلم أن يعرف الأبنية والصيغ .

قال ابن فارس فى فقه اللغة : « ومن فاته علمه فاته المعظم ، لأن (وجد) مثلا كلمة مبهمة ، فإذا صرفناها اتضحت بمصادرها » اهـ .

وحكى السيوطى عن الزمخشرى أنه قال : « من بدع التفاسير قول من قال : إن الإمام فى قوله تعالى : (يوم ندعوا كل أناس بإمامهم)(١) جمع أم ، وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم دون آبائهم قال: « وهذا غلط أوجبه جهله بالتصريف ، فإن أما لا تجمع على إمام » اهـ .

(ب) الأمر الثانى : يستطيع المفسر بواسطة هذا العلم أن يعرف قواعد الاشتقاق ؛ فمثلا إذا كان لاشتقاق الاسم من مادتين مختلفتين اختلف المعنى باختلافهما ، كالمسيح مثلا ، هل هو من السياحة أو من المسح ؟

هذا وقد رأى بعض الباحثين أن الصرف والاشتقاق علمان ، وأن الأول (الصرف) خاص بالأبنية والصيغ(٢) .

ولكنى أرى : أن الأبنية والصيغ ، وأن الاشتقاق موضوعان يندرجان تحت علم واحد وهو علم الصرف ، كما قدمت .

(علوم البلاغة الثلاثة وفائدتها للمفسر)

يحتاج المفسر لهذه العلوم لما يأتى :

١ — أن البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته ، ولابد

(١) فى الآية ٧١ من سورة الإسراء .

(٢) راجع الإتقان للسيوطى وكتاب (التفسير والمفسرون) للدكتور الذهبى .

للمفسر من هذه العلوم من أجل مطابقة تفسيره ومناسبته لسياق النص القرآنى وسباقه ولحاقه .

٢ — علوم البلاغة الثلاثة : (المعانى والبيان والبديع) من أعظم أركان المفسر ، لأنه لابد له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز اللغوى وذلك لا يدرك إلا بهذه العلوم .

٣ — لكل علم من هذه العلوم الثلاثة فائدة خاصة :

(أ) فعلم المعانى : يعرف به خواص تراكيب الكلام من جهة إفادتها المعنى .

(ب) وعلم البيان : يعرف به خواص تراكيب الكلام من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها .

(حـ) وعلم البديع : يعرف به وجوه تحسين الكلام ، سواء أكان التحسين راجعا إلى اللفظ أم إلى المعنى .

(كيف يمكن تحصيل علوم البلاغة) ؟

يمكن تحصيلها بممارسة الكلام البليغ ومزاولته ، مع التفطن لنكته ومحاسنه ، والعناية بالوقوف على مراد المتكلم منه ، قال ابن أبى الحديد : « .... وليس كل من اشتغل بالنحو واللغة والفقه يكون من أهل الذوق ، وممن يصلح لانتقاد الكلام ، وإنما أهل الذوق هم الذين اشتغلوا بعلم البيان ، وراضوا أنفسهم بالرسائل والخطب والكتابة والشعر ، وصارت لهم بذلك دربة وملكة تامة فإلى أولئك ينبغى أن يرجع فى معرفة الكلام وفضل بعضه على بعض » اهـ .

(علم الحديث بقسميه : « رواية ودراية » وصلته بالتفسير)

لابد أن يدرس الإنسان الذى يعد لأن يكون مفسراً ويحصل علم الحديث بقسميه . (رواية ودراية) دراسة تحليلية تفصيلية والمقصود بعلم الحديث رواية ما أسند إلى النبى ﷺ قولا أو فعلا أو تقريراً أو صفة خلقية أو خلقية .

والمقصود بعلم الحديث دراية معرفة حال السند والمتن ، وهو عبارة عن علم (مصطلح الحديث) ويسمى بـ (علوم الحديث) ويدخل فى ذلك علم تخريج الأحاديث وعلم الرجال ، ومعرفة درجة الأحاديث من حيث الصحة والحسن والضعف ، ومعرفة حال الآثار المنسوبة إلى الصحابة أو التابعين .

وبواسطة الحديث رواية يتمكن المفسر من تفسير النصوص القرآنية التى يكون تفسيرها فى الأحاديث الشريفة ، وهذا نوع من أنواع التفسير بالمأثور — كما ذكرت ذلك فى بحثى السابق : (مناهج التفسير بين القديم والحديث) .

وليس فى هذا تكرار مع ذكرته فى فترة الدراسة التمهيدية ، لأن ما ذكرته قبل ذلك إنما هو حفظ الإنسان للأحاديث الشريفة ، بمجرد حفظ فقط أما هنا فالمقصود منه دراسة وشرح هذه الأحاديث دراسة تحليلية تفصيلية وبواسطة علم الحديث دراية يستطيع المفسر الوقوف على درجة الأحاديث والآثار ، وتمييز الصحيح من غيره ، حتى يتأتى له تفسير القرآن الكريم بالمقبول من الصحيح والحسن دون غيره من الضعيف والموضوع ، وحتى لا يشتمل تفسيره على الإسرائيليات(١) .

(١) كتبت فى موضوع الإسرائيليات بالتفصيل فى كتابى : « منحة الجليل فى التنبيه على ما فى التفسير من الدخيل » .

ويقول العلامة السيوطى : « لابد أن يعلم المفسر الأحاديث المبينة والمفصلة للمبهم والمجمل ليستعين بها المفسر على توضيح ما يشكل عليه » اهـ .

ولكن ليس ماذكره كافيا ، بل لابد من إحاطة المفسر بما ذكرته قبل ذلك للأسباب التى ذكرتها .

(علم أصول الدين ، وفائدته للمفسر)

ويسمى علم العقيدة ، وعلم الكلام ، وعلم التوحيد ، وعلم الفقه الأكبر والتوحيد فى اللغة : العلم بأن الشىء واحد ، وفى الإصطلاح : علم يبحث فيه عما يجب وما يستحيل وما يجوز فى حقه تعالى ، وفى حق رسله عليهم الصلاة والسلام وعن الممكنات من حيث الاستدلال بها على وجود صانعها ، والسمعيات من حيث اعتقادها(١) .

وعلاقة هذا العلم بالقرآن الكريم وتفسيره : أن القرآن الكريم مشتمل على نصوص تتعلق بالعقائد ، فيستطيع المفسر بواسطه هذا العلم أن يستخرج العقائد من هذه النصوص ، والأدلة عليها ، فينظر فى الآيات المتعلقة بالإلهيات والآيات المتعلقة بالنبوات ، والآيات المتعلقة بالسمعيات وما إلى ذلك نظرة صائبة .

كما أنه يستطيع ويتمكن بواسطة هذا العلم أن يوازن ويقارن بين آراء علماء الكلام ، ويرجح رأيا على رأى ، ويرد على الآراء التى جانبها الصواب

(١) راجع : « الخلاصة السنية » فى شرح متن السنوسية ، لفضيلة الشيخ عبد العليم محمد حجاب — رحمه الله تعالى — من علماء الأزهر الشريف ص ٢ ، ٣ وراجع أيضا : المواقف ، والعقائد النسفية .

من خـلال النصوص القرآنية والأحاديث التى لهـا علاقة بموضوع الكلام .

ولا يتعصب لرأى معين ، ولا لفرقة مخصوصة ، وإنما ينظر فى الآراء نظره محايدة من خلال النصوص القرآنية والأحاديث والآثار الصحيحة فإذا لم يتعلم الإنسان الذى يريد التفسير هذا العلم (التوحيد) وقع فى مشاكل فمثلا : إذا لم يعرف آراء العلماء فى متشابه الصفات ، وقـف متحيرا أمام النصوص القرآنية ، ووقع فى مشاكل لا يعلم مداها إلا الله سبحانه وتعالى .

(علم الفقه وأثره فى تفسير القرآن الكريم)

والفقه فى اللغه الفهم مطلقا(١) ، أى سواء أكان دقيقا بأن كان يحتاج إلى نظر وتأمل وإعمال فكر أم كان غـير دقيق ، بأن كان أمرا ضروريا لا يحتاج إلى ما ذكر ، وخصه بعض اللغويين بالفهم الدقيق ، وعليه فلا يقال : فقهت أن السماء فوقنا ، بل يقال : فهمت ، وبناء على هذا الرأى الثانى تكون النسبة بين الفهم والفقه العموم والخصوص المطلق ، فكل فقه فهم ، وليس كل فهم فقها ، وأما على الرأى الأول فالنسبة بينهما الترادف (اختلاف الألفاظ واتحاد المعنى) كبر وقمح .

وعلم الفقه فى الاصطلاح : العلم بالأحـكام الشرعية الفرعية المستمدة من أدلتها التفصيلية ، أو يقال : الفقه معناه شرعا : معرفه الأحكام الشرعية التى طريقها الاجتهاد ، كالعلم بأن النية فى الوضوء واجبة وأن الوتر مندوب وأن النية من الليل شرط فى صوم رمضان ، وأن القتل بمثقل يوجب القصاص

(١) يقال : فقه كفهم وزنا ومعنا ، ويقال فقه كفتح إذا سبق غيره فى الفقه ، ويقال : فقه مثل كرم إذا صار الفقه له سجية

ونحو ذلك من مسائل الخلاف ، بخلاف ما ليس طريقه الاجتهاد كالعلم بأن الصلوات الخمس واجبة وأن الزنا محرم ونحو ذلك من المسائل القطعية ، فلا يسمى فقها ، فالمعرفة هنا العلم بمعنى الظن(١) .

ومن المعلوم : أن فى القرآن الكريم نصوصا تتعلق بالأحكام الشرعية والمفسر يستطيع بواسطة علم الفقه معرفة الأحكام الشرعية من خلال هذه النصوص ، كما أنه يتمكن من الموازنة بين المذاهب الفقهية ويقارن بينها ويرجح بعض الآراء على بعض ويرد على الآراء المخالفة من خلال النصوص القرآنية ، والأحاديث الشريفة والآثار المقبولة التى لها صلة بالموضوع دون تعصب بخلاف ما إذا كان الإنسان غـير عالم بهذا العلم فإنه عندما يتعرض لآيات الأحكام الشرعية بالتفسير يقع فى مشاكل .

(علم أصول الفقه وصلته بالتفسير)

وأصول الفقه تارة يعرف باعتبار التركيب ، وتارة يعرف باعتبار اللقب والمقصود بتعريفه باعتبار التركيب أننا نعرفه باعتباره مركبا إضافيا لأنه مركب من كلمتين : (مضاف وهو كلمة أصول ، ومضاف إليه وهو كلمة الفقه) وتعريفه بهذا الاعتبار يتطلب منا أن نعرف كل كلمة على حدة ، فأقول وبالله التوفيق .

أصول جمع أصل ، والأصل فى اللغة ما يبنى عليه غيره ، كأصل الجدار أى : أساسه ، وأصل الشجرة : أى طرفها الثابت فى الأرض ، ويقابله الفرع وهو ما يبنى على غيره ، كفروع الشجرة لأصلها ، وفروع الفقه لأصوله .

(١) راجع : حاشية الدمياطى للشيخ أحمد محمد الدمياطى على شرح الورقات فى أصول الفقه للإمام جلال الدين المحلى رحمهما الله تعالى آمين ص ٤٣، وراجع أيضا المستصفى للإمام الغزالى

والأصل فى الاصطلاح يطلق على معان متعددة منها الدليل وهو المراد هنا ، فمعنى أصول الفقه : أى أدلة الفقه .

والجزء الثانى وهو المضاف إليه (الفقه) قد تقدم الكلام عليه .

وأما تعريفه باعتباره لقبا على علم معين فيتأتى بتعريف هذا اللفظ كأنه كلمة واحدة هكذا .

معنى (أصول الفقه) أى طرق الفقه على سبيل الإجمال ، وكيفية الاستدلال بها ، ومعرفة صفات المستدل والمستفيد وهو المجتهد .

وطرق الفقه إجمالا مثل مطلق الأمر من حيث إنه للوجوب فى الأصل والنهى من حيث إنه للحرمة فى الأصل ، ومثل فعل النبى ﷺ من حيث إنه حجة ، ومثل الإجماع والقياس من حيث كونهما من الأدلة والحجج كذلك ومثل إقراره ﷺ على قول أو فعل فى كونه حجة ، وكالعام والخاص ، والمطلق والمقيد ، وغير ذلك .

وأما طرق الفقه على وجه التفصيل ، فليست من أصول الفقه ، وإن ذكر بعضها فى كتب أصول الفقه ، فإنها لم تذكر على أنها من أصول الفقه ، وإنما ذكرت لأجل تمثيل القواعد وإيضاحها ، ومثال طرقه على سبيل التفصيل(١) : (أقيموا الصلاة) (ولا تقربوا الزنا) وصلاته ﷺ فى الكعبة كما أخرجه الشيخان ، والإجماع على أن لبنت الإبن السدس مع بنت الصلب حيث لا معصب لهما . وقياس البر على الأرز فى امتناع بيع بعضه ببعض إلا مثلا بمثل يدا بيد كما رواه مسلم ، واستصحاب الطهارة لمن شك فى بقائها وغير ذلك ، فليس ذلك من أصول الفقه .

---

(١) أى على سبيل وصفة هى تفصيل متعلقها وتعيينها

ومعنى (كيفية الاستدلال بها) : أى كيفية الاستدلال بطرق الفقه من حيث تفصيلها أى تعيينها وتعلقها بحكم معين عند تعارضها فى إفادة الأحكام لكونها ظنية فى تلك الإفادة ، وكيفية الاستدلال بها كتقديم الخاص على العام والمقيد على المطلق ، والمبين على المجمل بأن يجعل تفسيراً للمجمل ، وأما القطعيات فلا يقع فيها تعارض .

وقد تبين لنا من تعريف أصول الفقه باعتباره لقبا على علم معين أن الموضوعات الرئيسية لهذا العلم ثلاثة :

١ — طرق الفقه .

٢ — كيفية الاستدلال بها .

٣ صفات المستدل المستفيد وهو المجتهد(١) .

والمفسر يتمكن بواسطة هذا العلم من معرفة كيفية استنباط الأحكام الفقهية من النصوص القرآنية المشتملة على تلك الأحكام ، وكيفية الاستدلال عليها ، ويعرف الإجمال والتبيين ، والخصوص والعموم والإطلاق والتقييد ودلالة الأمر والنهى ، وما سوى ذلك من كل ما يرجع إلى هذا العلم .

(لماذا يحتاج المفسر إلى علم الناسخ والمنسوخ) ؟

يحتاج المفسر إلى هذا العلم ليعلم الناسخ من المنسوخ ، لأن من فقد هذا العلم ربما أفتى بحكم منسوخ فيقع فى الضلال والإضلال .

---

(١) راجع فى ذلك حاشية الدمياطى على شرح الورقات فى أصول الفقه ص ٣، ٦، ٧ وراجع أيضا أصول الفقه لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الوهاب خلاف — رحمه الله تعالى . والمستصفى لأبى حامد الغزالى — رحمه الله تعالى

(لماذا يحتاج المفسر إلى معرفة أسباب النزول) ؟

لأن معرفة سبب النزول يعين على فهم المراد من النص القــرآنى الكريم(١) .

(لماذا يطالب المفسر بمعرفة القصص القرآنى) ؟

لأن القرآن الكريم مشتمل على الكثير من القصص للأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ولغيرهم ، ومعرفة القصة على وجه التفصيل يعين على توضيح ما أجمل منها فى القرآن الكريم .

(ما السبب فى مطالبة المفسر بالعلم بالسيرة النبوية) ؟

إذا تسلح المفسر بهذا العــلم فى ضوء الكتاب والسنة فإنه لا يقع فى مشاكل عندما يتعرض لتفسير النصوص القرآنية المتعلقة بأحداث السيرة النبوية .

(وجه الحاجة إلى العلم بأحوال العالم العلوى والسفلى)

أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم وجعله آخر الكتب السماوية وبين فيه ما لم يبين فى غيره ، بين فيه كثيراً من أحوال الخلق وطبائعه ، والسنن الإلهية فى البشر وقص علينا أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسنته تعالى ، وكان الكلام على سبيل الإجمال ، بالنسبة للأمم والسنن الإلهية ، وآيات الله فى السموات والأرض ، وفى الآفاق والأنفس ، وهو إجمالى صادر عمن أحاط بكل شىء علماً وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بالنظر والتفكير والسير فى الأرض لنفهم إجماله بالتفصيل الذى يزيدنا ارتقاء وكمالا

---

(١) راجــع ، فوائد معرفة سبب النزول فى مراجع علوم القرآن الكريم .

فلا بد من معرفة كل ما قدمناه عن أحوال العالم العلوى والسفلى ، وما يتصل بذلك من العلوم التى ذكرناها قبل ذلك ولو اكتفينا من علم الكون بنظرة فى ظاهره لكنا كمن يعتبر الكتاب بلون جلده ، لا بما حواه من علم وحكمة .

وأضرب لذلك مثالا : لا يمكن للإنسان أن يفسر قوله تعالى : (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ...) الآية(١) ، وهو لا يعرف أحوال البشر ، وكيف اتحدوا ، وكيف تفرقوا ، وما معنى تلك الوحدة التى كانوا عليها ، وهل كانت نافعة أم ضارة ، وماذا كان من آثار بعثة النبيين فيهم(٢) .

وليس معنى الكلام المتقدم أننا نخضع القرآن الكريم للنظريات العلمية الحديثة ، إنما المقصود : أن هذه العلوم وسيلة من الوسائل التى تعين على فهم القرآن ، وبيان الإعجاز العلمى للقرآن الكريم حيث أتى بالحقائق العلمية التى لم يصل العلماء إلى بعضها إلا أخيراً(٣) .

(العلم بوجه هداية البشر بالقرآن وفائدته للمفسر)

وذلك يتحقق بأن يعلم المفسر — على سبيل الوجوب ما كان عليه الناس فى عصر النبوة من العرب وغيرهم .

ويحتاج المفسر هذا العلم لما يأتى :

١ — ذكر القرآن الكريم : أن الناس كانوا فى شقاء وضلال ، وأن

---

(١) أنظر الآية ٢١٣ من سورة البقرة .

(٢) راجع مقدمة تفسير المنار .

(٣) كتبت عن التفسير العلمى وشروطه فى بحثى :(مناهج التفسير بين القديم والحديث) .

النبي – صلى الله عليه وسلم – بعث بالقرآن الكريم لهداية الناس وإسعادهم ، ولا يستطيع المفسر أن يفهم ما قبحته النصوص القرآنية من عوائدهم على وجه الحقيقة أو ما يقرب منها إذا لم يكن عارفا بأحوالهم وما كانوا عليه .

٢ – لا يكتفى من العلماء المتخصصين فى تفسير القرآن الكريم وعلومه بالتقليد أى : لا يكتفى منهم بأن يقولوا تقليداً لغيرهم : إن الناس كانوا على باطل ثم إن القرآن الكريم دحض أباطيلهم ، لا يكتفى منهم بأن يقولوا ذلك على وجه الإجمال .

٣ – أن من نشأ فى الإسلام ولم يعرف حال الناس قبله يجهل تأثير هدايته كما يجهل عناية الله سبحانه وتعالى فى كونه مغير الأحوال البشر ومخرجا لهم من الظلمات إلى النور ، ومن جهل هذا يظن أن الإسلام أمر عادى ، كما ترى بعض الذين يتربون فى النظافة والنعيم فإنهم يعتبرون التشديد فى الأمر بالنظافة والسواك من قبيل اللغو ، لأنه من ضرورات الحياة عندهم ، ولكنهم لو اختبروا غيرهم من طبقات الناس لعرفوا الحكمة فى تلك الأوامر وتأثير تلك الآداب من أين جاء(١) .

(معرفة المفسر للمطاعن التى توجه إلى الكتاب والسنة)

يجب على المفسر أن يكون دائم الاطلاع والوقوف على الشبه والتهم والمطاعن التى يوجهها أعداء الإسلام إلى الكتاب والسنة ليتأتى له الرد عليها وتفنيدها بالحجج والبراهين، وهذا يتطلب منه دراسة العلوم التى تؤهله للرد على المطاعن ومن هذه العلوم :

١ – علم المنطق القديم والحديث ، ويطلق المنطق فى اللغة على ثلاثة معان :

(١) مقدمة تفسير المنار بتصرف .

(ا) الإدراك الكلى .

(ب) التلفظ الذى يبرز ذلك الإدراك الكلى ، وبناء على المعنيين تكون كلمة (منطق) مصدراً ميميا (أى : ما دل على حدث ومبدوء بميم زائدة .

(ح) والمعنى الثالث للمنطق فى اللغة : القوة العاقلة التى هى محل ذلك الإدراك الكلى ، وعليه تكون كلمة منطق : (اسم مكان) : أى دلت على مكان حصول الحدث .

والمنطق فى الاصطلاح : قوانين تعصم مراعاتهـا الذهن عن الخطأ فى الفكر والقوانين ، جمع قانون ، والقانون : قضية كلية يتعرف منها أحكام جزئيات موضوعها ، ومثال ذلك : إذا قلنا : كل كلية موجبة تنعكس إلى جزئية موجبة ، فهذه قضية كلية ، والطريق إلى التعرف على جزئيات هذه القضية أن نأتى بجزئى من جزئياتها مثل : مثل كل إنسان حيوان، ثم نجعل هذا الجزئى موضوعا للمقدمة الصغرى ، ثم نجعل القضية الكلية المقدمة الكبرى ، فينتظم قياس من الشكل الأول ينتج المطلوب ، فنقول : كل إنسان حيوان ، كلية موجبة ، و كل كلية موجبة تنعكس جزئية موجبة ، فتكون النتيجة : كل إنسان حيوان تنعكس جزئية موجبة وهو المطلوب.

و (تعصم) أى تحفظ ، (مراعاتها) : أى ملاحظتها ، (الذهن) هو القوة التى تعد النفس لاكتساب المعقولات ، و (الخطأ) مجانبة الصواب و (الفكر) هو ملاحظة المعلوم لتحصيل المجهول تصوريا كان أو تصديقيا .

وموضوع علم المنطق المعلومات التصورية والتصديقية من حيث صحة إيصالها إلى مجهول تصورى أو تصديقى .

والتصور ، إدراك المفرد وما فى حكمه ، والتصديق عبارة عن إدراك

الموضوع (المسند إليه) والمحمول (المسند) وإدراك النسبة الكلامية التى هو مورد الإيجاب والسلب (ثبوت المحمول للموضوع أو نفى المحمول عن الموضوع فى الكلام).

وإدراك: أن هذه النسبة واقعة أو ليست بواقعة فى الخارج (النسبة الخارجية) على وجه يطلق عليه اسم التسليم والقبول.

فالتصديق يكون فى الجمل التامة التى تتكون من مسند ومسند إليه، ويحسن السكوت عليها، ولنضرب لذلك مثالا يوضح موضوع علم المنطق فأقول وبالله التوفيق:

كلمة (الاسم) مجهول تصورى للدارس المبتدىء، ومن أجل أن نعرفه به نأتى له بالمعلومات التصورية المناسبة له حتى يتوصل إلى معرفته، فنقول له: الإسم كلمة دلت على معنى فى نفسها ولم تقترن بزمن من الأزمنة.

فهذه المعلومات تصورية توصل إلى المجهول التصورى، وهو الاسم.

وهذه المعلومات التصورية يقال لها فى اصطلاح المناطقة (التعريف) أو القول الشارح.

ولنضرب مثالا فى التصديقات، فأقول وبالله التوفيق: (الوضوء مفتقر إلى نية) هذا مجهول تصديقى، لمن يجهل النسبة فى هذه الجملة، ومن أجل أن نعرفه بهذا المجهول نأتى له بالمعلومات التصديقية المناسبة فنقول: (الوضوء عبادة، وكل عبادة مفتقرة إلى نية، فالوضوء مفتقر إلى نية) وهو المطلوب وهذه المعلومات التصديقية نوعها قياس اقترانى من الشكل الأول، لأن الحد الأوسط وهو المكرر فى المقدمتين محمول فى المقدمة الصغرى موضوع فى المقدمة الكبرى.

وللتصورات مبادىء ومقاصد، وكذلك التصديقات لها مبادىء ومقاصد.

فمبادىء التصورات الكليات الخمس (الجنس والفصل والنوع والخاصة والعرض العام) ومقاصدها التعريف أو القول الشارح.

ومبادىء التصديقات القضايا وما فى حكمها من التناقض والعكس ومقاصدها القياس والحجة، وما يتعلق بذلك.

ومن المباحث التى تبحث فى المنطق أيضا مبحث الدلالات، ومبحث الألفاظ لعلاقتها بما تقدم.

والمنطق المادى أو الحديث له مباحث أخرى كمناهج البحث، وغير ذلك.

وفائدة المنطق — كما فهمنا من تعريفه — عصمة الذهن عن الخطأ فى الفكر، فهو بالنسبة للجنان (الذهن) كالنحو بالنسبة للسان، فكما أن النحو يعصم اللسان عن الخطأ فى التراكيب العربية، فإن المنطق يعصم الذهن عن الخطأ فى الأفكار، وعلماء الإسلام لا يختلفون فى جواز الاشتغال بالمنطق الذى ليس مخلوطا بالفلسفة، بل إن تعلمه واجب على سبيل الكفاية، لأن حصول القوة على دفع الشبه فى علم الكلام — الذى هو واجب، تتوقف على القوة فى هذا العلم، وما يتوقف عليه الواجب يكون واجبا، والنتيجة: أن تعلم المنطق الخالى من الفلسفة واجب كفائى وهو المطلوب.

وأما الاختلاف الذى تصوره هذه الأبيات:

فابن الصلاح والنواوى حرما ... وقال قوم ينبغى أن يعلما
والقولة المشهورة الصحيحة ... جوازه لكامل القريحة
ممارس السنة والكتاب ... ليهتدى به إلى الصواب

فإنما هو فى المنطق المخلوط بمكفريات الفلاسفة والأقوال فى جواز الاشتغال بهذا النوع من المنطق ـ كما هو واضح فى هذه الأبيات ـ ثلاثة :

القول الأول : تحريم الاشتغال به حيث يخشى على الشخص المشتغل به أن تتمكن من قلبه بعض العقائد الزائفة ، وهـــذا القول للإمام ابن الصلاح والنواوى ووافقهما على ذلك كثير من الفقهاء والمحدثين .

القول الثانى : أن الاشتغال به مستحب ، وممن قال بذلك الإمام أبو حامد الغزالى حتى قال : (من لا معرفة له بالمنطق لا يوثق بعلمه) أى وثوقا تاما .

القول الثالث : التفصيل : أى تارة يجوز وتارة لا يجوز .

(أ) فيجوز الاشتغال به بشرطين

الأول : أن يكون عقل المشتغل به كاملا يعنى عنده قدر من الذكاء لا بأس به .

الثانى : أن يكون ممارسا للكتاب والسنة ومتحصنا بهما ، بحيث لا تؤثر فيه آراء الفلاسفة وعقائدهم الفاسدة .

(ب) ولا يجوز الاشتغال به لمن فقد شرطا منهما أو كليهما

فإذا كان بليدا فلا يجوز له الاشتغال به ، وكذلك من كان ذكيا ولكنه لم يحصن نفسه بالكتاب والسنة لا يجوز له الاشتغال به ، وأولى فى عدم جواز الاشتغال به من كان بليدا ولم يحصن نفسه بالكتاب والسنة .

وهذا الرأى هو الصحيح[1] .

(١) راجع فيما تقدم مصادر علم المنطق وهى كثيرة جدا .

٢ — ومن العلوم التى تؤهل المفسر للرد على مطاعن أعداء الإسلام علوم الفلسفة بكل أنواعها ، سواء أكانت فلسفة يونانية قديمة أم فلسفة حديثة ، أم فلسفة الأخلاق ، أم فلسفة إسلامية

٣ — ومن العلوم التى تساعده على تفنيـــد المطاعن : أدب البحث والمناظرة .

٤ — ومنها علم الجدل .

وقد يقال : لماذا يحتاج المفسر إلى تعلم هذه العلوم ؟

والجواب :

يحتاج المفسر لدراسة هذه العلوم للأسباب الآتية :

(أ) أن خصوم الإسلام يستخدمون المنطق والفلسفة وعلوم الجدل فى تصوير شبهاتهم ومطاعنهم على الكتاب والسنة من أجل أن تجد ، أرضا خصبة وتلقى رواجا عند المسلمين لتشكيكهم فى عقائدهم ومبادىء دينهم ، من هـذا المنطق فلا بد للمفسر أن يتسلح بنفس السلاح حتى يرد عليهم ويفند شبهاتهم ومطاعنهم بالأدلة والبراهين ويطعنهم بمثل سلاحهم .

(ب) ذكرت فى بحثى السابق : (مناهج التفسير بين القديم والحديث) أن هناك نوعا من التفسير يسمى بـ (التفسير الفلسفى) وقد اختلف فيه العلماء : منهم من أيده ومنهم من عارضه ، ولا بد لكلا الفريقين من دراسة العلوم الفلسفية ، فمن أيد التفسير الفلسفى يدرسها ليفسر بها النصوص القرآنية ، ومن عارض يدرسها لكى يرد عليها من واقع القرآن الكريم وتفسيره ، لأنه لا يتأتى له الرد عليهـــا بدون دراستها لأن الرد عليها بمثابة الحكم عليها ، وكيف يحكم على شىء يجهله ؟ فقد تقرر : أن الحكم على الشىء فرع عن تصوره .

(ج) هناك من النظريات والمسائل الفلسفية مايتعارض مع العقيدة الإسلامية والتعاليم الدينية، كقول بعض الفلاسفة مثلا: (إن الله عالم بالكليات دون الجزئيات) فهذا يقتضى من المفسر دراسة العلوم الفلسفية ليوازن بينها وبين التعاليم الإسلامية حتى يقرمايتفق مع مبادىء الإسلام، ويفند ما يتعارض معها بالحجج والأدلة.

(د) يحتاج المفسر إلى تعلم علم المنطق من أجل إقامة الأدلة العقلية على قضايا العقيدة الموجودة فى نصوص القرآن والسنة.

(هـ) أيضا القرآن الكريم والسنة الشريفة مشتملان على أدلة عقلية على إثبات قضايا العقيدة ومشتملان كذلك على ردود عقلية كثيرة بالنسبة للمنكرين لهذه القضايا، واستخراج هذه الأدلة والردود العقلية يحتاج من المفسر إلى دراسة علوم المنطق والفلسفة والجدل وأدب البحث والمناظرة.

٥ — ومن العلوم التى يحتاج إليها من يرد على مطاعن خصوم الإسلام اللغات الأجنبية، لأن هذه الطعون قد يكون مصدرها المستشرقين وبعض هؤلاء لا يعرفون اللغة العربية.

(لماذا يحتاج المفسر إلى دراسة الملل والنحل والأديان والمذاهب؟

لأن القرآن الكريم مشتمل على كثير من الملل والنحل وقد رد عليها بالأدلة والبراهين، وحينئذ فلابد للمفسر أن يدرس هذه العلوم بالتفصيل حتى لا يقع فى مشاكل عندما يتناول مثل هذه النصوص بالتفسير.

فمثلا: يقول الله تعالى (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ...) الآية(١) وقال تعالى: (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث

(١) انظر الآية ١٧ والآية ٧٢ من سورة المائدة

ثلاثة ...) الآية(١) وقال تعالى: (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ..)(٢) وقال تعالى: (وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل، قاتلهم الله أنى يؤفكون)(٣).

فإذا لم يقف المفسر على هذه الملل والنحل والأديان التى تتضمنها هذه النصوص القرآنية وغيرها لوقع فى مشاكل لا يعلم مداها إلا الله تعالى حينما يتعرض لتفسير هذه النصوص.

(لماذا يحتاج المفسر إلى دراسة الفرق التى لها آراء ومقالات فى مسائل العقيدة الإسلامية)؟

يحتاج المفسر إلى دراسة تاريخ الفرق التى لها آراء ومذاهب فى مسائل العقيدة، مثل أهل السنة، والمعتزلة، والشيعة، والخوارج، والقدرية والمرجئة، والبابية، والبهائية وغيرهم، لأن كل هؤلاء يستندون فى إثبات عقائدهم إلى الكتاب والسنة، فلا بد للمفسر أن يعرف الخلفية التاريخية عنهم ويعرف مبادئهم، وكيف يستدلون عليها من القرآن والحديث حتى يتسنى له الرد عليهم بالأدلة.

ويشترط فى المفسر أن يكون يقظا فطنا عالما بقانون الترجيح، حتى إذا ماكان النص القرآنى محتملا لأكثر من وجه أمكنه أن يرجح ويختار

(١) انظر الآية ٧٣ من سورة المائدة
(٢) فى الآية ١٧ من سورة الحج
(٣) الآية ٣٠ من سورة التوبة

ما هو قانون الترجيح فى الرأى ؟

قال الإمام الزركشى : «كل لفظ احتمل معنيين فصاعدا فهو الذى لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه ، وعلى العلماء اعتماد الشواهد والدلائل وليس لهم أن يعتمدوا لمجرد رأيهم فيه .

وكل لفظ احتمل معنيين ، فهو قسمان :

أحدهما : أن يكون أحد المعنيين أظهر من الآخر ، فيجب الحمل على الظاهر إلا أن يقوم دليل على أن المراد هو الخفى دون الجلى فيحمل عليه

الثانى : أن يكونا جليين والاستعمال فيهما حقيقة ، وهذا على ضربين :

أحدهما : أن تختلف أصل الحقيقة فيهما ، فيدور اللفظ بين معنيين هو فى أحدهما حقيقة لغوية ، وفى الآخر حقيقة شرعية ، فالشرعية أولى إلا أن تدل قرينة على إرادة اللغوية ، نحو قوله تعالى : (وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم)(١) وكذلك إذا دار بين اللغوية والعرفية ، فالعرفية أولى لطريانها على اللغة ، ولو دار بين الشرعية والعرفية ، فالشرعية أولى لأن الشرع ألزم .

الضرب الثانى : لا تختلف أصل الحقيقة ، بل كلا المعنيين استعمل فيهما فى اللغة أو فى الشرع أو فى العرف ، على حد سواء ، وهذا أيضا على ضربين :

أحدهما : أن يتنافى اجتماعهما ، ولا يمكن إرادتهما باللفظ الواحد ، كلفظ القرء ، حقيقة فى الحيض والطهر ، فعلى المجتهد أن يجتهد فى المراد منهما بالأمارات الدالة عليه ، فإذا وصل إليه كان هو مراد الله

(١) فى الآيه ١٠٣ من سورة التوبة

تعالى فى حقه ، وإن اجتهد مجتهد آخر فأدى اجتهاده إلى المعنى الآخر كان ذلك مراد الله تعالى فى حقه لأنه نتيجة اجتهاده وما كلف به ، فإن لم يترجح أحد الأمرين لتكافؤ الأمارات فقد اختلف أهل العلم ، فمنهم من قال : يخير فى الحمل على أيهما شاء ، ومنهم من قال : يأخذ بأعظمهما حكما ، ولا يبعد اطراد وجه ثالث ، وهو أن يأخذ بالأخف ، كاختلاف جواب المفتين :

الضرب الثانى : ألا يتنافى اجتماعهما ، فيجب الحمل عليهما عند المحققين ، ويكون ذلك أبلغ فى الإعجاز والفصاحة ، وأحفظ فى حق المكلف إلا أن يدل دليل على إرادة أحدهما ، وهذا أيضا ضربان :

أحدهما : أن تكون دلالته مقتضية لبطلان المعنى الآخر ، فيتعين المدلول عليه للإرادة .

الضرب الثانى : ألا تقتضى بطلانه ، وهذا اختلف العلماء فيه : فمنهم من قال : يثبت حكم المدلول عليه ويكون مرادا ، ولا يحكم بسقوط المعنى الآخر ، بل يجوز أن يكون مرادا أيضا ، وإن لم يدل عليه دليل من خارج لأن موجب اللفظ عليهما فاستويا فى حكمه ، وإن ترجح أحدهما بدليل من خارج ومنهم من قال : ما ترجح بدليل من خارج أثبت حكما من الآخر لقوته بمظاهرة الدليل الآخر ، فهذا أصل نافع معتبر فى وجوه التفسير فى اللفظ المحتمل ، والله أعلم » (١).

(لماذا يحتاج المفسر لدراسة علم التصوف الإسلامى) ؟

لأن النصوص القرآنية قد تتضمن إشارات وأسرار خفية لا تدرك إلا بواسطة هذا العلم ،

(١) البرهان فى علوم القرآن للإمام الزركشى — رحمه الله تعالى .

وبالجملة : فإن المفسر لا بد له من الإلمام بكل علم وثقافة ، لأن القرآن الكريم يتضمن كل شيء ، وصدق الله العظيم حيث يقول : (ما فرطنا في الكتاب من شيء) (١) .

وهنا تساؤلات قد يوردها البعض أذكرها هنا وأجيب عليها بتوفيق الله تعالى من باب إتمام الموضوع :

قد يقال :

ما فائدة العلوم المتقدمة للمفسر ؟ وما علاقتها بالتفسير ؟

والجواب : على هذا التساؤل يعلم مما تقدم .

قد يقال :

إن هدف التفسير إنما هو بيان مظاهر الإعجاز القرآني ، والوسيلة إلى ذلك إنما هو دراسة علوم البلاغة ، لأن الإعجاز إنما يدرك بهذه العلوم ، وحينئذ فلا حاجة بنا إلى غيرها من العلوم ، فلماذا ذكرت ؟

والجواب :

إن الهدف من نزول القرآن الكريم لا ينحصر في الإعجاز ، وإنما نزل القرآن الكريم لمقاصد ثلاثة رئيسية :

١ — نزل من أجل الهداية .

٢ — ونزل ليكون معجزة للنبي ﷺ .

٣ — ونزل من أجل التعبد بتلاوته ، فلابد للمفسر من الإلمام بكل علوم القرآن الكريم التي تخدم هذه الأهداف .

(١) في الآية ٣٨ من سورة الأنعام .

وعلوم البلاغة لا تفيد إلا في بيان مظهر واحد من مظاهر الإعجاز القرآني وهو الإعجاز اللغوي ، ووجوه الإعجاز لا تنحصر في الإعجاز اللغوي فهناك الإعجاز التاريخي والإعجاز العلمي والإعجاز النفسي والإعجاز بالنسبة لبيان ما يحدث في المستقبل إلخ ، وهذا يتطلب دراسة علوم كثيرة ، لمعرفة كل ما يتصل بالإعجاز القرآني .

وحيث إن القرآن الكريم متضمن لكل شيء — كما تقدم — فلابد للمفسر من دارسة كل العلوم التي تساعده على استخراج ما في القرآن الكريم .

قد يقال :

إن الإلمام والمعرفة بكل هذه العلوم فوق طاقة الإنسان ، فكيف يكلف المفسر بمعرفتها على وجه التفصيل ؟

والجواب :

أولا : المفسر لا يدرس هذه العلوم كلها في يوم وليلة ، بل لابد أن يقطع زمنا طويلا لدراستها ، ولا ضير في ذلك إذا أراد أن يكون مفسرا أكاديميا .

ثانيا : هذه العلوم التي ذكرتها وفصلت القول فيها فيما تقدم إنما هي من أجل تحقيق أعلى مراتب التفسير ، أما المعاني العامة الإجمالية التي يستشعر منها المرء عظمة مولاه ، والتي يفهمها الإنسان عند إطلاق اللفظ القرآني الكريم فهي قد يكاد يكون مشتركا بين عامة الناس، وهو المأمور به للتدبر والتذكر ، لأنه سبحانه وتعالى سهله ويسره ، وذلك أدنى مراتب التفسير .

جاء في مقدمة تفسير المنار : «للتفسير مراتب : أدناها أن يبين بالإجمال ما يشرب القلب عظمة الله وتنزيهه ، ويصرف النفس عن الشر ويجذبها إلى الخير .

وهذه هي التي قلنا : إنها متيسرة لكل أحد ، قال تعالى : (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر)(١) .

وأما المرتبة العليا فهي لا تتم إلا بأمور ... ، إلخ (٢) .

ثالثا : إن معرفة المفسر لهذه العلوم كلها لا تكون بدرجة واحدة ومستوى واحد ، بل معرفته لها متفاوتة .

(أ) فالعلوم التي لها علاقة قوية بالقرآن الكريم وتفسيره يجب على المفسر معرفتها على وجه التفصيل والتحليل التام ، كعلوم اللغة والدين .

(ب) والعلوم التي لها صلة بعيدة بالقرآن الكريم وتفسيره ، وجب على المفسر أن يكون عارفا بها بتفصيل وتحليل أقل من العلوم المتقدمة ، وذلك مثل العلوم الحديثة ، كالفلك ، وتقويم البلدان ، والطب ، والعلوم والهندسة والنبات والحيوان ، وغير ذلك .

وإنما كانت الصلة بعيدة بين القرآن الكريم وتفسيره وبين هذه العلوم : لأن الهدف الأسمى من نزول القرآن الكريم هو الهداية والإعجاز والتعبد بالتلاوة وهدف التفسير الأعلى تجلية هدايات القرآن الكريم وتعاليمه في مجال العقائد وفي مجال التشريعات ، وفي مجال الأخلاق ، وبيان حكمة الله تعالى فيما شرع للناس على وجه يجتذب الأرواح ويفتح القلوب ، ويدفع النفوس إلى الاهتداء بهدى الله تعالى ، ومن أهداف التفسير أيضا بيان مظاهر ووجوه الإعجاز واستخراجها من القرآن الكريم .

نعم : القرآن الكريم يشير الى الحقائق العلمية من طب وهندسة وفلك

---

(١) الآية ١٧ من سورة القمر ووردت في مواضع أخرى من السورة .

(٢) راجع مقدمة تفسير المنار .

وغيرها ولا يتعارض مع الحقائق العلمية ، ولكن ليس من أهدافه بيان نظريات العلوم الحديثة على سبيل التفصيل ، فالقرآن ليس كتاب طب أو هندسة أو فلك إلخ وإنما هو كتاب هداية وإعجاز ، أو هو كتاب يشتمل على أمرين : المنهج والمعجزة (١)

قد يقال :

إن الكلام المتقدم وهو أن المفسر لا بد له من أن يحيط بكل علم وثقافة يفهم منه إلغاء التخصص ، وعدم اعتبار الأقسام العلمية في المؤسسات التعليمية ، وهذا خلاف الواقع فكيف نوفق بين الواقع والكلام المتقدم ؟

والجواب :

الكلام المتقدم لا يؤدي إلى هذه النتيجة التي تضمنها هذا التساؤل لما يأتي :

١ — أن لقب (مفسر) يفهم منه التخصص في علم التفسير .

٢ — أن العلوم التي يتوقف عليها علم التفسير يباح للإنسان أن يتخصص في أي علم منها لكن لا يكون مفسرا بالمقياس العلمي الأكاديمي الإسلامي .

فمثلا : المتخصص في النحو فقط لا يقال عنه (إنه مفسر) وإنما يقال له : (إنه نحوي) ومتخصص في علم النحو ، والمتخصص في الفقه الاسلامي مثلا : يقال عنه :(إنه فقيه) أو متخصص في الفقه ، والمتخصص في علم أصول الفقه ، يقال عنه : (إنه أصولي) أو متخصص في علم أصول الفقه ، والمتخصص في التاريخ يقال عنه (إنه مؤرخ) وهكذا ، ولكن لا يقال عن واحد من هؤلاء : (إنه مفسر) .

---

(١) تكلمت عن هذا الموضوع في التفسير العلمي في بحثي (مناهج التفسير بين القديم والحديث)

فلا يلزم من المتخصص فى أى علم من هذه العلوم أن يكون مفسراً، ولكن المفسر — كما تقدم — لابد أن يلم بكل العلوم على اختلاف أنواعها، ويلزم من إطلاق لقب (المفسر) عليه صحة إطلاق الألقاب العلمية الأخرى كالنحوى والأصولى والفقيه والمؤرخ، فالمفسر نحوى، ولغوى، وفقيه وأصولى، وصرفى، وبلاغى إلخ العلوم التى يجب أن يحصلها.

٣ — ولكن الفرق بين المتخصص فى التفسير والمتخصص فى أى علم آخر: أن المتخصص فى التفسير يدرس العلوم الأخرى على أنها وسيلة للتفسير أما المتخصص فى أى علم آخر غير التفسير، فإن تخصصه فى هذا العلم هو غايته، وليست دراسته لهذا العلم وسيلة لدراسة علم آخر.

قد يقال:

إن هذا الكلام يفهم منه أن المتخصص فى علم التفسير أفضل من المتخصصين فى العلوم الأخرى، فكيف ندفع هذا الفهم؟.

والجواب:

الكلام المقدم لايفهم منه تفضيل التخصص فى التفسير، ولكن قد يفهم منه أن التخصص فى التفسير له مزية على غيره من التخصصات الأخرى وقد قرر العلماء والباحثون: أن المزية لاتقتضى الأفضلية.

ولا غرابة فى هذه المزية، لأن التخصص فى علم التفسير يتعلق بأشرف وأعظم الكتب على الإطلاق، وهو القرآن الكريم، لأنه كتاب مشتمل على المنهج والمعجزة وقد تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظه، وصدق الله العظيم حيث يقول: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)(١).

---

(١) الآية ٩ من سورة الحجر.

(من مظاهر الإعداد والتوجيه فى مجال الثقافة والتعليم

الإعداد التطبيقى العملى)

ما قدمناه إنما هو إعداد الإنسان الذى يكون مفسراً فى مجال الثقافة والتعليم من الجانب النظرى، وهذا لايكفى فلابد من الإضافة إلى الإعداد النظرى إعداده وتوجيهه من الناحية العملية التطبيقية، وهذا اللون من الإعداد يأخذ أشكالا وصوراً متعددة:

١ — من هذه الصور والأشكال: تدريبه على إلقاء الدروس والمحاضرات فى علم التفسير.

٢ — ومنها: تدريبه على كتابة الأبحاث والمقالات والرسائل العلمية فى التفسير.

٣ — ومنها: تدريبه على إجابة الأسئلة التى توجه إليه فى علم التفسير.

فإذا إجتاز الإنسان الذى يعد لأن يكون مفسراً هذه المرحلة الأولى: (مرحلة الإعداد والتوجيه والتدريب) فى المجالات المتقدمة — إذا إجتاز هذه المرحلة بنجاح وتفوق على وجه الإمتياز كان مفسراً بالقوة.

بمعنى: أن لديه استعداداً لأن يكون مفسراً بالفعل شكلا وموضوعاً ولكن لايكون مفسراً بالفعل شكلا وموضوعاً إلا إذا اجتاز — بالإضافة إلى اجتيازه المرحلة السابقة — المرحلة الثانية بنجاح وتفوق أيضاً على وجه الامتياز، وهذه المرحلة الثانية هى (مرحلة البذل والعطاء) وسأتحدث عنها — إن شاء الله تعالى — على وجه التفصيل فى القسم الثانى للبحث.

وبالله التوفيق